الباب الأول

الفصل الأول

الجزيرة العربية

- تسميتها
- حدودها
- مُناخها
- أثرها في حياة سكانها

الجزيرة العربية

تسميتها ـ حدودها ـ مُنَاخُهَا ـ أثرها في حياة سكانها

كانت الجزيرة العربية تعرف بهذا الاسم منذ العصر الجاهلي. قال الهمداني[1]: «سميت جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها». وفي الواقع ما هي إلا شبه جزيرة لإحاطة المياه بها من ثلاث جهات في الجنوب والغرب والشرق.

يحدها من الشرق خليج عمان، والخليج العربي، ومن الجنوب بحر العرب، ومن الغرب البحر الأحمر أما من الشمال فالعراق والأردن.

وهي أعلى ما تكون غربا ثم تنحدر إلى الشرق، وهي من أشد بلاد العالم جفافا وحرارة، ليس فيها أنهار دائمة الجريان، ولكن بها أودية يجري فيها الماء حينا، ويجف حينا، كوادي حنيفة ووادي[2] الرمة ووادي الحمض. والأمطار عامة قليلة إلاّ في بعض المناطق الجنوبية والشمالية الغربية فتهطل أمطار موسمية. وقد كونت حياة الجزيرة القاسية من سكانها أبطالا أشداء لا يهابون الموت ولا يخافونه، وعودتهم الصبر والجلد وشدة البأس وقوة المراس، كعنترة، وعمرو بن معد يكرب وسواهم، ودفعت سكانها إلى كثرة الرحلات في طلب العشب والكلأ، وإلى كثرة النزاع حول مناطق الرعي والعشب وموارد المياه، فكثرت الحروب عندهم، واتخذوا منها وسيلة من وسائل العيش، يغيرون على القبائل المجاورة حتى ولو كانوا إخوة لهم: يقول القُطامي[3]:

---

(١) صفة جزيرة العرب ٤٧

(٢) انظر تحديد هذه الأودية في تاريخ العرب قبل الإسلام (ط: بيروت، ١/ ١٦٠ ـ ١٦٢).

(٣) القُطامي بضم القاف وفتحها لقب غلب عليه واسمه عمير بن شُبيم.

وكُنَّ إذا أغـــرن على جَنـــابٍ وأعـــوزهُنَّ نهبٌ حيثُ كـــانـــا
أغـــرن من الضِّبـــابِ على حُلُـــول وضَبَّـــةَ إنَّـــه مَـنْ حـــان حـــانـــا
وأحيـــانًـــا على بَكْـــرٍ أخينـــا إذا مـــا لم نَجِـــد إلاّ أخـــانـــا

ولذا كانت حياتهم حياة حربية، تقوم على القتل والنهب والسلب وسفك الدماء، فالقبيلة دائما شاكية السلاح، مغيرة أو مغار عليها واترة أو موتورة يقول دريد بن الصمة: (١)

أبـى القتلُ إلا آلَ صِمَّـــــةَ إنهُمْ أبَوْا غيرَهُ والقَـدْرُ يَجري إلى القَدْرِ (٢)
فإمـــا تَـــرَيْنَـــا لا تـزالُ دمـــاؤُنـــا لـدى واتـرٍ يَسْعَى بها آخِرَ الـدَّهـر
فإنـــــا للحـم السَّيفِ غَيْرَ نَكِيرةٍ ونُلْحِمُـهُ حِينًـا وليـس بـذِي نُكـر
يُغـــارُ علينـــا واتـــريـن فَيُشْتَفَى بنـــا إن أصبنـــا أو نُغِيرُ على وِتـــرِ
قسمنا بـذاك الدهـر شَطريـن بيننا فما يَنْقَضي إلا ونحنُ على شَطْـــــرِ

شريعتهم وقانونهم هو الأخذ بالثأر يقول تأبط (٣) شرا: (٤)

قليلُ غِـــــرارِ النَّـــومِ أكبَرُ هَمِّه دَمُ الثَّأرِ أو يَلْقَى كَمِيًّا مُسَفَّعا (٥)

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ٢/ ٨٢٤ ـ ٨٢٦.

(٢) قوله والقدر يجري إلى القدر يريد كما قُدروا للقتل قُدِّر القتلُ لهم.

(٣) هـو ثابت بـن جابـر بن سفيـان الفهمي، أبو زهير من مضر، شـاعـر عـداء من فتاك العـرب في الجاهلية، وقد ورد أنه سمي تأبط شرا، لأنه تأبط سيفًـا وخرج فقيل لأمه: أين هو؛ فقالت تأبط شرًّا، وخرج وقيل إنه كان احتضن شيئًا ثقيلاً، فسئل ما معك في حضنك؟ فرمى بثعبان عظيم، فقيل قد تأبط شرًّا، وقيل إنه ينظر إلى الظبي في الفلاة فيجري خلفه فلا يفوته.

(٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ٢/ ٤٩٢.

(٥) غرار النوم: القليل من النوم، فهو لا ينام الغرار فكيف بما فوقه؟
الكمي: الذي يُكْمِي شجاعته لوقت الحاجة إليه، أو الذي يتكمى في سلاحه.
مسفعا: متغير لون الوجه من لفح السَّموم.

فالثأر لقتل الأب أو القريب، والثأر للعرض والشرف، والثأر لحماية المستجير. والويل لمن تخلى عنه من ألسنة الشعراء، أغار بنو شيبان على إبل لقريط بن أنيف[1] فاستنجد قومه فلم ينجدوه فلجأ إلى بني مازن فأنجدوه وقال معيرا قومه: [2]

لو كُنتُ من مازنٍ لم تستَبِح إبِلي ... بَنُو اللقِيطة من ذُهْل بن شَيْبَانا
إذاً لقام بنصرِي معشرٌ خُشُنٌ ... عند الحفيظة إن ذُو لُوثةٍ لاَنَا [3]
قومٌ إذا الشَّرُّ أبدى ناجِذَيْه لهُمْ ... طارُوا إليه زرافاتٍ وَوُحْدَانا [4]
لا يسألُون أخاهم حين يَنْدُبُهُم ... في النائباتِ على ما قال بُرهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي عَدَدٍ ... ليسوا من الشَّرِّ في شيءٍ وإن هَانَا
يَجْزُون من ظُلْم أهلِ الظُّلمِ مَغْفِرةً ... ومن إساءَةِ أهلِ السُّوء إحْسَانَا
كأن رَبَّك لم يخلُق لخشيتِهِ ... سواهُمُ من جميعِ الناس إنسانا
فليت لي بهم قومًا إذا ركبوا ... شدوا الإغارةَ فُرسانا ورُكبانا

يفتخرون بإيقاد نار الحرب يقول عامر[5] بن الطفيل: [6]

وأنا ابنُ حربٍ لا أزالُ أشُبُّها ... سَمَرًا وأوقِدُها إذا لم تُوقَدِ

---

(١) هو قُرَيط بن أُنَيف العنبري التميمي شاعر جاهلي. وقيل إن الأبيات المذكورة لأبي الغول الطهوي.

(٢) شرح الحماسة للتبريزي: ١/ ٥ ـ ١٠ والمرزوقي ١/ ٢٣ ـ ٣١ عدا الأخير

(٣) المعشر: اسم للجماعة، خُشُن: جمع خَشِنٍ وأخْشَنَ.
الحفيظة: الخَصْلَة يُحفظ لها، أي يُغضب، وقيل هي الحِميَّة، اللوثة: الحمق والاسترخاء والضعف

(٤) الناجذ: ضرس الحلم وإبداؤه، مثل لاشتداد الشر. طاروا: أسرعوا. الزرافات: الجماعات تُشتق من الزَّرف وهو الزيادة على الشيء.

(٥) عامر بن الطفيل شاعر جاهلي من سادات قومه كنيته أبو علي. ولد ونشأ بنجد، توفي سنة ١١هـ.

(٦) الأصمعيات: ٢١٦.

وها هو النُّكْري[1] يقول حين شاب رأسه وزعم الغواني أن مشيبه ذاك لعلو سنه وتقدم عمره.[2]

زعم الغَـــواني أن أرَدْنَ صرَيمَتِي ... أنْ قـد كَبِرْتُ وأَدْبَرَتْ حـاجـاتي[3]
وضَحِكْن مِنِّي سـاعـــة وسألْنَنِي ... مُـذْ كَم كذا سنـةً أخذت قَنـاتي[4]
مـــا شِبتُ من كبرٍ ولكني امـــرؤ ... أَغشَى الحُرُوبَ ومـا تشيبُ لِـدَاتي
أحمي أُنـاسي أن يُبَـاح حـريمُهُم ... وهُمُ كـذاك، إذا عُنيتُ، حُمَاتي[5]
من معشر يـأبى الهَوَانَ أخُـــوهُم ... شُمِّ الأُنـوفِ جَحَاجحٍ سَـادَاتِ[6]
عَـزُّوا وعَـزَّ بعـزِّهم من جـاوَروا ... وهُمُ الـذُّرَا وغـلاصِمُ الهامَـاتِ[7]
إنْ يَطْلُبُـوا بجـريـرة ينـأَونَهَا ... أو يُطْلَبُـوا لا يُـدْرَكـوا بِتِرَاتِ[8]

فبيـاض رأسـه ليس لما زعمنـه، وإنما هي الحروب شيبن رأسـه يقتحم الأهوال، ويذب عن الحريم، وهو من معشر سادة أباة يحمون الجار، ويجنون الجناية فلا يطلب منهم ثأر.

حروبهم تبـدأ صغيرة، ثم تقوى وتشتـد بمرور الـزمن، فتجر إليهـا من لا ناقـة له فيها ولا جمل يشترك فيهـا الراغب والكاره ويصير لها عـدوى كعدوى الجرب فيعم شرها وينتشر بلاؤها[9].

---

(١) هو عبد الله بن جِنْح النُّكْريّ.
(٢) الأصمعيات: ١١٤.
(٣) الصريمة: القطيعة.
(٤) القناة هنا: العصا، يريد أن النسوة يسألنه: متى أحوجه الكبر إلى أن يدب على العصا.
(٥) عنيت: قُصدت، أي أراده أعداؤه بالأذى.
(٦) الجحجح: السيد الكريم.
(٧) الذرا: الأعالي، الغلاصم: جمع غلصمة، تستعار لمعنى الشرف. الهامات: الرءوس.
(٨) الجريـرة: الجنايـة. ينأونها: يبعـدونها، أي إنهم إذا طلبـوا ثأر جنايـة جنيت عليهم بعـدوا بها إلى أقصى الغايات. التِرات: جمع ترة، وهي الثأر.
(٩) شرح الحماسة للمرزوقي: ١/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

الشَّيءُ يبــدؤهُ في الأصلِ أَصْغَــرُهُ ... وليس يَصْلَى بِكُلِّ الحرْب جــانيهـا
والحَرْبُ يلحَقُ فيهـا الكارِهـون كما ... تدنُو الصِّحَـاحُ إلى الجَرْبى فَتُعْديها

عـركتهم الحروب وذاقوا مـرارتها ووصفوهـا فأجادوا. قيل لعنترة الفـوارس صف لنـا الحرب فقال[1]: أولها شكوى، وأوسطهـا نجوى، وآخرهـا بلوى. ووصفها عمـرو بن معد يكرب شـاعرنـا حين سئل فقال[2]: مـرة المذاق إذا قلصت عن ساق، من صبر فيهـا عرف، ومن ضعف عنهـا تلف. ووصفها في شعره فقال[3]:

الحربُ أولَ مـــا تكـــون فتيـــةٌ ... تسعى ببـــزتها لكلِّ جَهُـــولِ
حتى إذا حميـت وشبَّ ضِرَامُهـــا ... عـــادتْ عجـــوزًا غيرَ ذات حليلِ
شمطـاءَ جـزتْ شعـرَهـا وتنكـرتْ ... مكـــروهـــةً للشمِّ والتقبيـلِ

ولم يكن القتال مقصـورا على الرجال دون النساء بل شاركـت المرأة الرجال في الحروب ومضت مع الغزاة تنشد الأهازيج وتدق الدفوف وتسقي العطشى وتضمـد الجرحى وتقـول الشعـر في الافتخـار بقـومهـا وانتصـاراتهم. تقـول خولة بنت الأزور[4]:

وإنـــا معشر من مـــات منـــا ... فليس يمـــوتُ مـــوتَ المُسْتكين

وتقول صفية بنت ثعلبة[5]:

شيبـــان قـــومي هـل قبيلٌ مثلهم؟ ... عنـــد الكفـاح وكَـــرَّةِ الفـرســـان
لا والـــذوائب من فـــروع ربيعـــةٍ ... مـــا مثلُهُم في نـــائب الحَدَثـــان

---

(١) العقد الفريد ١/ ٩٤.
(٢) الشعر والشعراء ١/ ٣٧٣.
(٣) الديوان ١٥٦.
(٤) شاعرات العرب/ ١١٠
(٥) شاعرات العرب/ ١٨٩

قـــوم يُجيرون اللهيف من العـــدا ويُحاطُ عمـــري من صروف زمـــاني
تـــرد الهيـــاجَ بنـــو أبي لا تتقي مسطى العـــدو وصـولـــةَ الأقـران

وتقول الخرنق بنت بدر بن هفان :[1]

لاَ يبعُـــدَنْ قـومـي الـــذيـن هُم سُـمُّ العـــــداة وآفـــــةُ الجزر
النـــــازلـــــون بكـل معترَكٍ والطيبـــــون معـــاقـــد الأزر
الضـــاربـــون بحـــومـــة نـــزلت والطـــاعنـــون وخيلهم تجري
قـــوم إذا ركبـــوا سمعـت لهم لغطـا من التـأييـه والـزجـر [2]

واشتهر في كل قبيلة فارس، فكان يقال[3] فارس اليمن في بني زبيد عمرو ابن معد يكـرب، وفارس غطفـان الربيع بن زيـاد العبسي، وفارس بني تميم عتيبة بن الحارث بن شهـاب أحد بني يربوع، وفارس عمـرو بن تميم طريف ابن تميم العنبري، وفـارس دارم عمـرو بن عمـرو بن عدس، وفـارس سعـد فدكي بن أعبد المنقري وفارس الرباب زيدالفوارس بن حصن الضبي وفارس قيس عامر بن الطفيل، وفارس ربيعة بسطام بن قيس.

وهكـذا كان العـرب في جاهليتهم مفطـورين على القتال، مطبـوعين على الحرب رجالا ونساء، من العار عندهم أن يموت المرء على فراشه حتف أنفه، يقول السموءل بن عاديا :

ومـا مـات منـا سيـدٌ حتفَ أنفـه ولا طُلّ منّـا حيثُ كـان قتيلُ [4]
تسيل على حـدِّ الظُبـاة نفـوسُنـا وليس على غير السيـــوف تسيل

---

(١) شاعرات العرب / ٩٣ ـ ٩٤.
(٢) التأييه : الصوت.
(٣) العمدة: ٢/ ١٩٢ ـ ١٩٣.
(٤) العقد الفريد: ١/ ١٠١.